

محمد المخلوفي | Mohamed Elmakhloufi *

البحث السردي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات

Narrative Research in The Social Sciences: Theories and Applications

عنوان الكتاب:	البحث السردي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات.
المؤلف:	حسن احجيج.
الناشر:	مراكش: مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال.
سنة النشر:	2023.
عدد الصفحات:	128.

* باحث، حاصل على الماجستير في علم الاجتماع من جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب.

Researcher, received a Master's in Sociology from Ibn Zohr University in Agadir, Morocco.

Email: elmakhloufi105@gmail.com

مقدمة

توجيهات للباحثين في كيفية الاشتغال بهذه الأخيرة. وباستخدام هذه المقاربة، يدافع الكتاب عن مشروعية البحث السردية، معتمداً تحليلاً يُشبه حركة المد والجزر. فما يطرحه من قضايا في فصل يأتي في فصل لاحق لتعميق النقاش حولها. على سبيل المثال، خصّ المؤلف معظم فصول الكتاب لتحليل مفهوم التذاوت⁽⁴⁾، وذلك لتبيان التجديد المنهجي الذي أحدثه هذا النمط من البحوث في العلوم الاجتماعية.

يتوزّع الكتاب على مقدمة وخمسة فصول، ثم خاتمة. يُركّز الفصل الأول على السياق الفكري لانبثاق البحث السردية في العلوم الاجتماعية، ويتطرق إلى المبادئ الفلسفية لهذا الشكل الجديد من البحوث. أما الفصل الثاني، فيكشف أهمية السرد في هذه العلوم، ويواصل الفصل الثالث التعريف بأدوات البحث الموظفة في جمع المعطيات الميدانية. في حين يسلّط الفصل الرابع الضوء على طرائق تفرغ المقابلات السردية، وكذا مناهج تحليلها. وأخيراً يتناول الفصل الخامس الكتابة السردية، موضّحاً بنية النص السردية في العلوم الاجتماعية ومكوناته.

(4) ارتبط مفهوم التذاوت بالبحوث السردية في العلوم الاجتماعية، ويقصد بهذا المفهوم تفاعل الذات الباحثة مع موضوع بحثها، وقد أحدث انبثاق هذا المفهوم ثورة في العلوم الاجتماعية؛ إذ جرى الانتقال من البردايم الوضعي القائم على انفصال الذات عن الموضوع، إلى بردايم جديد، يقوم على فكرة ارتباط الباحث بالمستجيب في علاقة تعطي المستجيب أهمية بالغة في بناء العالم وصنع الحقيقة الاجتماعية التي أضحت مع ظهور البحث السردية في العلوم الاجتماعية حقيقة نسبية تختلف وتتناوب، بناء على القصص والتجارب الذاتية التي يقدمها المستجيبون في القصص التي يروونها حول تجاربهم الخاصة. ينظر:

Nick Crossely, *Intersubjectivity: The Fabric of Social Becoming* (London: Sage, 1996).

يواصل حسن احجيج في كتابه البحث السردية في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات الكشف عن القيمة المعرفية والمنهجية للمنهج الكيفي في العلوم الاجتماعية، حيث ينظر المؤلف إليه بصفته المنهج الملائم لفهم الظاهرة الاجتماعية والإنسانية، بدلاً من تفسيرها فحسب. ويأتي كتابه هذا تنمّة للنقاش الذي تطرق إليه في أبحاثه السابقة⁽¹⁾، خاصةً كتابه المشترك مع جمال فزة البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات⁽²⁾ الذي حاجّ فيه الباحثان بعلمية المنهج الكيفي بصفته مقارنة بحثية في العلوم الاجتماعية، وانتقداً التصور الداعي إلى استبعاد هذا المنهج من دائرة البحث الاجتماعي⁽³⁾. في هذا السياق، يسعى الكتاب لتبيان دور السرديات بوصفها مقارنة منهجية في فهم عوالم البشر، مشدداً على أنّ "السرديات تلعب دوراً مهماً في عالم البشر، وتشكّل وسيلة ملائمة لإضفاء المعنى على وجودهم الاجتماعي" (ص 13).

يعتمد الكتاب مقارنة نسبية تمزج بين النظري والتطبيقي؛ حيث يتجلى الجانب النظري في بسط السياق العام لظهور هذه المقاربة في أدبيات البحث السوسولوجي، بينما يُقدم الشق التطبيقي

(1) حسن احجيج [وآخرون]، *الفهم في العلوم الاجتماعية* (مراكش: مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، 2023)؛ حسن احجيج، "التعميم في بحث دراسة الحالة: دروس من دراسة واحة فجيح - المغرب"، *إضافات، العددان 47-48* (صيف-خريف 2019)، ص 96-114؛ حسن احجيج، "التفسير القسدي للسلوك الاجتماعي وشروط صدقيته"، *عمران، مج 8، العدد 29* (صيف 2019)، ص 63-87.

(2) حسن احجيج وجمال فزة، *البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات* (مراكش: فضاء آدم للنشر والتوزيع، 2019).

(3) المرجع نفسه، ص 13.

أولاً: "المنعطف السردى في العلوم الاجتماعية"

هذا المنظور من الفرد بوصفه فاعلاً، ويوجّه اهتمامه إلى المعاني التي يُصْفِيها على أفعالها كما تشكل في السياق الاجتماعي الخاص وتفاعلاته، وهنا نستشف التأثير والتأثر الحاصل بين قصص المستجيبين وواقعهم بتعدد أبعاده.

من جهة أخرى، ينظر المؤلف إلى هذا النمط من البحوث بصفته بديلاً من التصور الوضعاني، ويُبرز في هذا السياق حدود هذا المنظور الذي يغفل السياقات المركبة التي تشكل ضمنها أفعال الأفراد وتجاربهم، في إطار إسقاطه المناهج المعتمدة في العلوم الطبيعية على الإنسان. وبخلاف هذا التوجه، يروم البحث السردى النفاذ إلى التجارب التي يقدمها الأفراد على شكل قصص، كما يسعى لتأويلها من منظورهم باعتبارهم ذواتاً فاعلةً، تمتلك القدرة على بناء الواقع الاجتماعي وإضفاء المعنى عليه.

ثانياً: "البحث السردى بوصفه مقاربة بديلة من الاتجاه الوضعاني"

يحاول الفصل الثاني الذي يعدّ امتداداً للفصل السابق، كشف أوجه الجدة التي تميز البحث السردى من الاتجاه الوضعاني. ففي الوقت الذي يسعى فيه رواد هذا الاتجاه لإسقاط منظور العلوم الحقة في دراسة الظاهرة الإنسانية، يتبنّى رواد البحث السردى منظوراً تأويلياً فهمياً، يدافعون من خلاله عن اختلاف هذه الظاهرة عن نظيرتها الطبيعية. وينطلقون في تبنيهم لهذا المنظور من تحليل السرديات التي يرويها الأفراد، ويحاولون فهم كيفية تشكيلها من خلال استحضار مجموعة من الأبعاد، بدءاً بالعودة إلى ماضيهم، باعتباره خزناً للأحداث التي تتضمنها قصصهم. وبهذا

يركز الفصل على البعد التاريخي لتشكيل البحث السردى في العلوم الاجتماعية، من خلال الوقوف على أهم المنعطفات التي عرفها، والتي عبّر عنها في مرحلتين أساسيتين. بدأت المرحلة الأولى مع مدرسة شيكاغو التي يعود الفضل إلى روادها، خصوصاً وليام إسحاق توماس William I Thomas وفلوريان زنانيكي Florian Znaniecki في كتابهما الفلاح البولوني في أوروبا وأميركا، في بلورة هذا النمط من البحوث، من خلال اهتمامهما بدراسة رسائل حياة المهاجرين. واتّسمت السرديات خلال هذه الفترة بالتركيز على الأحداث التي كانت تقع في الحياة الحضرية، في حين ظلت الممارسة السوسولوجية حبيسة المقاربات الإثنوغرافية للوقائع التي كان يعيشها الأفراد، من دون النفاذ إلى التجارب الذاتية والمعاني التي يمكن أن يتضمّنهما الفعل الفردي. وقد استمر البحث الاجتماعي على هذه الشاكلة إلى حدود ثمانينيات القرن الماضي، التي تغيّر معها التناول العلمي لمفهوم السرد، متخذاً منعطفاً جديداً عمّا كان عليه الأمر سابقاً (ص 15-17).

تتجلى جدّة هذا المنعطف الجديد الذي قّده دانييل بيرتو Daniel Bertaux في كتابه البيوغرافيا والمجتمع: مقارنة تاريخية في العلوم الاجتماعية، في توجيه الباحثين إلى الاهتمام بالتجارب الخاصة للأفراد التي لم تعد موضوعاً للوصف الإثنوغرافي، بل أضحت مادة دسمة للتأويل والبحث عن الدلالات والمقاصد المضمرة في القصص التي يقدمها الأفراد. وبذلك نكون أمام تحوّل جديد، قطع مع البراديم الواقعي، مؤسساً لمنظور تأويلي في السرديات (ص 18). وينطلق

يتولى المستجيب قيادة الفعل السردية، في مقابل انحصار دور الباحث في التحفيز والدعم لجعل الأفراد يروون تجاربهم: "الباحث في المقابلة السردية يقوم بدور المستمع الجيد، ويكون المستجوب راوياً للقصة. وتكون المقابلة دائماً منفتحة على التغيير والتطوير اعتماداً على تجارب السارد" (ص 49).

بناء عليه، نستشف أن المقابلة السردية تؤسس لعلاقة جديدة بين الباحث والمستجيب؛ تؤسس على التفاعل المتبادل بين طرفي البحث الميداني. ومن شأن ذلك؛ في نظرنا، أن يقوّي العلاقة التي تجمع بينهما، ويُمكّن الباحث من الحصول على معطيات تُغني القضايا التي يبحث فيها. فإذا افترضنا، على سبيل المثال، أن الباحث يبحث في الدوافع الكامنة وراء هجرة الأفراد، فإن الاعتماد على هذا النمط من المقابلة سيجعل المشاركين يزودونه بحقائق كثيرة، مثل الأهداف التي يتطلعون إلى تحقيقها، بعد قرار الهجرة هذا. وهذا كله يتطلب إجراء مقابلات مكثفة لتمتين جسور الثقة بين الباحث والمستجيب.

رابعاً: "تحليل المقابلات السردية"

يركّز الفصل الرابع على طرائق تفرغ هذا النمط من المقابلات السردية؛ إذ "يعني التفرغ هنا تحويل السرديات الشفوية إلى نص، علماً أن النص هو وحده الذي يضمن أن تؤدي البيانات إلى نتائج" (ص 66). ويعتمد في سياق تعريفه بهذه الطرائق على منهج المقارنة، مُبرزاً أوجه الاختلاف بينها. فإذا كان التفرغ باعتماد وحدات تحليل جي (نسبةً إلى اللغوي الأميركي جيمس باول جي James Paul Gee) يركز على ما يقوله

التحديد نلمس أن هذه المقاربة البحثية تسعى للنفاذ إلى عوالم البشر، إضافة إلى الكشف عن أثر القصص في النفاذ إلى الواقع الاجتماعي الذي يبنى في إطاره الأفراد قصصهم؛ فالمؤلف يرى أن إمام الباحثين بهذا الواقع يُمكنهم من معرفة ما تحبل به سرديات الأفراد من وقائع. وهنا تتحدد قيمة هذه المقاربة وأهميتها؛ إذ لا تفصل الفعل السردية عن سياق تشكله. إنها بهذا التحديد تموضع هذا الفعل داخل البيئة الاجتماعية التي يعيش في داخلها الأفراد، ويؤثرون فيها، ويتأثرون بها (ص 33).

ثالثاً: "المقابلة السردية"

يقف الفصل الثالث على الأدوات البحثية التي يشتغل بها رواد البحث السردية، ويركز بصفة خاصة على تقنية المقابلة السردية التي تشكل إحدى أبرز الأدوات المعتمدة في هذه المقاربة لدراسة قصص الأفراد؛ نظراً إلى أن السرد ليس "مجرد معطيات كيفية أو مقارنة معينة لتحليل المعطيات. إنها مقارنة منهجية في ذاتها تتطلب مسلمات بارديغمية دقيقة ومنهجاً لجمع المعطيات يسمى المقابلة السردية" (ص 47). فيبدأ بتوضيح خصوصيات هذا الشكل الجديد من المقابلة الذي يتميز من منظوره من الأشكال التقليدية للمقابلة، فبينما تنطلق هذه الأشكال من مركزية الباحث، ظلماً منها أن الباحث في العلوم الاجتماعية هو من يفهم الواقع ويسبر أغواره، باعتماده أسئلة محددة، أو ما يُسمى دليل المقابلة. في حين تؤسس المقابلة السردية على منظور جديد، ينطلق من مركزية المستجيب الذي يُعدُّ وفقاً لهذه المقاربة الفاعل في فهم الواقع الاجتماعي. ولهذا السبب يُطلعنا المؤلف بانقلاب الأدوار في هذا النمط من البحوث؛ إذ

المنهجية التي ينبغي احترامها في أثناء الكتابة السردية، "تراعي المعايير التي تتبناها الجامعات لقبول الأطروحات وتعتمدها المجلات لقبول نشر الأوراق البحثية من جهة، ومن جهة أخرى احترام المبادئ الأساسية للبحث الكيفي الذي يقوم بالأساس على مقارنة استكشافية واستقرائية وتوليدية للنظرية" (ص 91). ويوجه المؤلف هذه الضوابط التي قدّمها في شكل إرشادات توجيهية للطلاب الباحثين، نظراً إلى ما يعترضهم من مشكلات في أثناء تحرير أوراقهم العلمية، وتحديدًا المشكلات ذات الطابع المنهجي.

تمس هذه الضوابط التي سعى المؤلف للكشف عنها بنية النص السردية بمختلف الأجزاء التي يتشكل منها، بدءاً بالمقدمة التي على الباحث، في أثناء كتابتها، التعريف بموضوع البحث وتحديد المشكلة البحثية موضوع الدراسة، إضافةً إلى الأهداف المنشود بلوغها، مروراً بعرض الدراسات السابقة التي يؤكد المؤلف ضرورة الاشتباك النقدي معها من خلال الكشف عن حدودها، ومن ثم إبراز الجديد الذي يميز الموضوع الذي يدرسه الباحث، وهي مرحلة جد مهمة في إعداد البحوث في تقديرنا. في حين تحدد وظيفة الإطار النظري في الكشف عن النظرية التي انطلق منها في مقارنة موضوع بحثه، كما المفاهيم المعتمدة، مع الحرص على تعريف هذه المفاهيم وإبراز ما بينها من تقاطعات.

أما في الإطار المنهجي، فيدعو المؤلف الباحثين إلى الحرص على ذكر الإجراءات المنهجية، وفي هذه الخطوة، عنوان هذا المكون، ينبغي الحرص على تحديد المقاربة النظرية التي انطلق منها الباحث، كما الاشتباك الحقيقي مع الواقع الذي يسرد من أجل حمل القارئ على التماهي

المشاركين في البحث، فإن رواد التفرغ الصارم، أو الشامل، كما يُسمّى المؤلف، يهتمون بتفريغ التفاعلات التي يبديها الباحث للمشاركين في البحث، بما في ذلك عبارات التحفيز وردات الأفعال العاطفية (ص 68). ويُفسّر في تقديرنا انتصار المؤلف لهذا الشكل من التفرغ، نظراً إلى تلاؤمه مع خصوصيات المقابلة السردية التي لا يقوم الباحث فيها بالإنصات إلى المشاركين في البحث وهم يروون قصصهم فحسب، لكنه يعمل أيضاً على دعمهم وتحفيزهم.

ويوضّح الفصل الاختلاف القائم على صعيد مناهج التحليل السردية؛ ما يبيّن تنوع المقاربات التحليلية التي يعتمدها رواد البحث السردية، خصوصاً إليوت جورج مشلر Elliot George Mishler وأميا لبلش Amia Lieblich، فقد كشف عن إسهاماتهما في تطوير هذه المناهج، وقد توقف في تعريفه بالمقاربات التي طورها هذان الباحثان عند تباينات واضحة في المنظورات التي ينطلق منها كلاهما في تحليل قصص الأفراد التي تتسم بالتعقيد والتركيب؛ ما يفرض الأخذ بأكثر من مقارنة (ص 70). ولهذا السبب تحديداً، نعتقد أن تحليل السرديات يتطلب تبني مقارنة شمولية تجمع بين التحليل الفثوي والشمولي الذي تحدثت عنه لبلش، إلى جانب استحضار المقاربة التي طورها مشلر، التي تدعو إلى استحضار الواقع الاجتماعي للأفراد.

خامساً: "الكتابة السردية"

يناقش الفصل الخامس (الأخير) بنية النص السردية في العلوم الاجتماعية، ويتميز من الفصول السابقة ببعده التطبيقي العملي؛ إذ يعرض المؤلف فيه مجموعة من الضوابط

"ليست 'استجواباً'، إنما تبادل 'للغة والمشاعر والأفكار بين الباحث والمشاركين من أجل إعادة البناء المشتركة للعالم'" (ص 79). ويتقاطع منظوره مع المقاربة الفهمية التي دافع عنها جون كلود كوفمان Jean Claude Kaufman في كتابه *المقابلة الفهمية*، الذي دعا فيه إلى ضرورة الحرص على تكسير علاقات التراتب بين الباحث والمستجيبين لإنجاح المقابلة الفهمية التي تفرض انقلاب الأدوار بين طرفي البحث، مع التركيز على أسئلة مفتوحة⁽⁵⁾. ويبدو أن ثمة ارتباطاً بين أطروحة كوفمان وأطروحة احجيج، على اعتبار أن كلتا المقاربتين تسعى لتجديد البحوث الاجتماعية عبر إعادة الاعتبار للمستجيب. وعلى الرغم من أهمية المنظور الذي يدافع عنه الكتاب، فإنّ المقاربة التي يحاجّ بمشروعيتها في البحث السوسولوجي لا تستقيم مع المنظورات الكلاسيكية في السوسولوجيا، خصوصاً أن هذه الأخيرة تدعو إلى القطع المطلق مع ما يقول الأفراد (الحس المشترك). تبدو في حقيقة الأمر حدود المقاربة السردية في عدم قدرة المشغلين بها على إعطاء تبرير إبستمولوجي يضمن لها شرط العلمية؛ ما يدفعنا إلى إبداء ملاحظتين:

أولاً، يطلق المؤلف نعت المقاربة المنهجية للمنظور السردية، دفاعاً عن علميتها، لكن السؤال الذي يبرز هنا: ما طبيعة الوقائع التي تسعى هذه المقاربة لفهمها؟ أهى وقائع حقيقية، تعكس تلك القصص التي يقدّمها الأفراد، أم أنها مجرد تخيلات يصطنعها الأفراد من تلقاء أنفسهم في أثناء إجراء المقابلة السردية؟ من هذا المنطلق، لا يبدو استبعاد فعل التوجيه الذي يدعو إليه

مع الباحث، من دون إغفال التعريف بالعيّة التي ستجرى عليها الدراسة. وفي مقابل ذلك، يتحدث المؤلف في المرحلة الأخيرة عن عرض النتائج الميدانية، ويشدد في هذه المرحلة على أن عرض النتائج في البحوث السردية يختلف مبدئياً عن نظيره في البحوث التقليدية، التي يقدم فيها الباحث إجابات عن أسئلته البحثية وفرضياته. في حين يتجه البحث السردية إلى عرض القصص التي يقدمها المشاركون في البحث.

مناقشة ختامية

يُعدّ كتاب *البحث السردية في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات تطويراً لمشروع احجيج المتكامل في اهتمامه بمناهج البحث السوسولوجي*، ولا سيما المناهج الكيفية التي كشف عن أهميتها البحثية في مجموع إنتاجاته البحثية. وعلى الرغم من ارتباط هذا الكتاب بأعماله السابقة، فإنّ المؤلف يطوّر في كتابه هذا قضايا جديدة تتعلق بالكشف عن علمية المقاربة الكيفية، ومن ثمّ تجاوز المنظورات التي تصنف هذا الأخير في نطاق المناهج الأدبية، إلى جانب توضيح علاقة الباحث بالمشاركين في البحث (العلاقة التذاتية)، من دون إغفال إبراز خصوصيات البحوث الكيفية التي تأخذ في الحسبان سياقات البحث.

في هذا الصدد، يُعدّ الكتاب مرجعاً مهماً للطلاب والباحثين في العلوم الاجتماعية المشغلين بالمقاربة الكيفية. وتحدد أهمية أطروحة الكتاب في تجاوز المقاربات الكلاسيكية التي تنطلق من مركزية الباحث، والتأسيس لمقاربة بحثية جديدة، تنطلق من فرضية مفادها أن المستجيب طرف مشارك في البحث: "المقابلة السردية

(5) Jean Claude Kaufmann, *l'entretien compréhensif*, 4^{ème} éd. (Paris: Armand colin, 2016).

الاجتماعية وحيازتها الشرعية. ويفترض تحقيق هذا الرهان الذي يشكل غاية كل العلوم، قدرًا من الانفصال بين الذات (الباحث) والموضوع (المستجيب). لذلك، نعترض على هذا النوع من العلاقة ونرى أنه من الضروري على الباحث أن يتجنب إقحام دوافعه الذاتية، وأن لا يتماهى مع المشاركين في البحث؛ إذ يُفترض عليه أن يبني مسافة معرفية مع الفئة التي يدرّسها، وأن يؤسس لعلاقة بحثية علمية لا تؤثر فيها أشكال التعاطف، كي تحوز المعطيات التي توصل إليها شرط العلمية.

الباحث ذا فائدة؛ إذ يؤدي التوجيه دورًا مهمًا في تنظيم العملية البحثية، فهو يعرف الباحث بالذي ينبغي طرحه من أسئلة، كما يدرك المستجيب هو الآخر الأسئلة التي يجيب عنها، وهنا تكمن حدود هذه التقنية، على الرغم من الجديد الذي تتميز به، مقارنةً بالأشكال التقليدية للمقابلة المعروفة في البحث الكيفي.

ثانيًا، تضعنا العلاقة بين الباحث والمشاركين في البحث (العلاقة التداوتية) في مأزق حقيقي يرتبط بإشكالية الموضوعية في العلوم الاجتماعية، حيث يطرح إشكال الحدود بين العلم والأدب مثلاً، وكذا إشكال بناء الحقيقة

References

المراجع

العربية

احجيج، حسن. "التعميم في بحث دراسة الحالة: دروس من دراسة واحة فجيح - المغرب". إضافات. العددان 47-48 (صيف-خريف 2019).

_____ . "التفسير القصدي للسلوك الاجتماعي وشروط صدقته". عمران. مج 8، العدد 29 (صيف 2019).

احجيج، حسن وجمال فزة. البحث الكيفي في العلوم الاجتماعية: نظريات وتطبيقات. مراكش: فضاء آدم للنشر والتوزيع، 2019.

احجيج، حسن [وآخرون]. الفهم في العلوم الاجتماعية. مراكش: مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، 2023.

الأجنبية

Crossely, Nick. *Intersubjectivity: The Fabric of Social Becoming*. London: Sage, 1996.

Kaufmann, Jean Claude. *l'entretien compréhensif*. 4^{ème} éd. Paris: Armand colin, 2016.